طفولة ملك ومثالية أب رائد

عبدالرحمن بن سليمان الرويشد
كاتب ومؤرخ، الرياض

لم تكن الطفولة يوماً بمعزل عن اكتمال الرشد؛ فالموهبة والعبقرية ثمرة النشأة.. لذا حرص دارسو سير الصفوة للأنبياء، والقادة، والمفكرين على تناول تفاصيل نشأة من يكتبون سير حياتهم الخالدة.

وعندما نرصد معالم شخصية خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله منذ بواكير شبابه، نجد أن البيئة التي نشأ فيها كانت ذات أثر كبير في تكوين شخصيته، وكانت النموذج، بما تحمله من معالم الخير والعدل والحق.

ولد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله في قصر والده بالرياض في ظروف تبعث على التفاؤل، فحين أطل هذا المولود كان الوالد العظيم قد فرغ من إنجاز جزء مهم من توحيد المملكة العربية السعودية.

أما والدة ذلك المولود الجديد «خادم الحرمين الشريفين» فهي الأميرة الجليلة «فهدة بنت العاصي ابن شريم» التي يعود لها الفضل إلى جانب زوجها في تربية ابنها.

نشأ خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله في قصر الملك عبدالعزيز في الرياض، المعروف بقصر الديرة.

وعندما بلغ ذلك المولود سن الدراسة ألحقه والده بإخوته في مدرسة القصر، التي تضم عدداً منهم ومن غيرهم ممن هم في مثل سنه أو أكبر، أو أصغر، لتلقي الدروس الأولية..

وكان الملك عبدالعزيز يولي هذه المدرسة اهتماماً خاصاً، فيختار لها المعلمين الأكفاء والمدرسين من ذوي الثقافة الدينية والعربية.

تشكلت ثقافة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله في طفولته المبكرة من حصيلته الدراسية التي تلقاها في مدرسة الأمراء، فقد حاز شهادتها العليا المتاحة آنذاك، قبل أن تبلغ تلك المدرسة مرحلة

تطورها الدراسي فيما بعد، وهي تسير وفق نظام أكثر رقياً من الكتاتيب القديمة الشائعة آنذاك للعملية التربوية للأطفال في سنهم المبكرة.. وكانت تهتم بالثقافة الدينية ودروس اللغة العربية والحساب، وحفظ القرآن الكريم، وتجويده.

وقد اعتادت تلك المدرسة أن تقيم احتفالاً كبيراً بمناسبة ختم أحد الأنجال للقرآن الكريم، ومن تلك الاحتفالات الاحتفال البهيج الذي أعده الملك عبدالعزيز احتفاءً بختم خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله في طفولته المبكرة للقرآن الكريم، وكان عمره إذ ذاك لايتجاوز الثلاثة عشر عاماً.

ومن أهم مصادر ثقافة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله في نشأته وطفولته المبكرة ملازمته لمجالس والده في القصر، فكان لا يتخلف عن تلك الجلسات، لاسيما أن سكنه مع والدته لا يبعد كثيراً عن مجلس والده العام، فكان يحضر الدروس اليومية التي يلقيها أحد أحد الفقهاء ويعلق عليها الملك، وربما شارك في المناقشة أحد العلماء، فكان ذلك المجلس مدرسة يشاهد فيها والده ورؤساء دوائره، وهو يدير شؤون مملكته، ويتحدث في مختلف القضايا.

وكان في تلك السن من باكورة شبابه كثير الاختلاط بمستشاري والده، الذين كانوا على جانب كبير من العلم والثقافة فكان يناقشهم ويستعير منهم الكتب ويحصل على بعض الصحف التي ترد للديوان ليطلع عليها. وكان من حسن طالع هذا الشاب، أنه أدرك في طفولته المبكرة الكثير من كبار أسرته وأعمامه وعماته ورفقاء والده في السلاح من الرواد الأوائل، فكان يصغي إلى أحاديثهم، ويستمع إلى ما شاهدوه من أحداث وعاشوه من حياة.

كما كان لخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله، وهو في تلك السن المبكرة، ميل فطري للمطالعة والقراءة، واهتمام خاص بالأدب العربي. وقد اكتشف هذه الميول أحد المثقفين الكبار في ديوان والده وهو الشيخ رشدي ملحس، سكرتير الشعبة السياسية. فكان يزود الأمير بالكثير من الصحف والمجلات التي ترد إلى الديوان، ويقترح عليه قراءة بعض الكتب.

وكان لذلك الشاب القسط الأوفر من الاهتمام بالفروسية والشأن العسكري، الذي امتزج بتكوينه منذ سن مبكرة، نتيجة تربيته الأسرية التي عاشها، وهو يخطو خطواته الأولى. وكان يرى في الفروسية النبل والسمو بالنفس والتسامح. وكان يعلو صهوة جواده دون معين، ويمتلك عنان فرسه وهو إذ ذاك حدث، لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره.

وقد انعكست صورة تلك النشأة الصالحة لطفولة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله، على مجمل سيرته وتعاملاته، التي امتدت منذ ذلك العهد في صور ترعاها العواطف النبيلة، التي تتجلى في مختلف مراحل نموه، بما فيها شأن الطفولة الذي تنامى في عهده.. فقد حظيت منه بالكثير من الرعاية، وأنشئت لها الكثير من المؤسسات التربوية والصحية، والتعليمية، والتدريبية.

وكما كان الملك عبدالله يفرح بلقاء الكبار من أبناء شعبه، نراه يجد بهجة موازية بلقاء الصغار من مواطنيه، ولايجد غضاضة أن يقبّل أولئك الأطفال، وأن يحمل البعض منهم وكأنهم أطفاله، وأن يستفسر عن معاناة بعضهم، ويمازحهم، ويستمع إلى أقوالهم البريئة.. منصتاً لهم كأب رحيم. ولقد وجد في هذه المواقف بعض الإخوة، من العرب والمسلمين خارج بلاده، ما دفع البعض منهم إلى طلب يد العون في أن يحظى مرضاهم الأطفال، أو المعاقون منهم، بالعلاج والرعاية في بلاده.. فلم يخيّب ظنهم.

والملك عبدالله أب عاش، وهو شامخ القامة، مكتمل الرجولة، يعمر قلبَه حبُ دينه، ووطنه، وأسرته الكبيرة من شعبه.. يتطلع الجميع إليه فيغدق عليهم حبه، ويمد أسرته بإرشاداته، ولم تمنعه عاطفة الحب الجياشة أن يوجههم نحو الاعتماد على أنفسهم، وأن يتحدث معهم بصراحة عن الظروف التاريخية الصعبة التي عاش جزءاً منها، وعاشها آباؤه وأجداده.. وأن عليهم أن يكونوا مستعدين لمواجهة ذلك. ورأى من حوله أنه ربما أوحى للكثير منهم بأنهم أحرار في تحديد مستقبلهم.. لكن لن يتوانى عن تذكيرهم بأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.. وأن الأهداف لا تتحقق ما لم تدعم بالإيمان القوي والعلم.

والمعروف أن المبادئ والسياسات والنصائح التي يوجهها ذلك القائد بحكم نشأته وتربيته لأبنائه، كان يوجهها لأبناء شعبه، عائلته الكبيرة في مملكته، وفقه الله.

البيئة التي نشأ فيها خادم الحرمين الشريفين كانت ذات أثر كبير في تكوين شخصيته

الملك عبدالله أتم حفظ القرآن الكريم وعمره ١٣ عاماً